صور وصفية

صـــديقي بشر ...

للأستاذ محمود تيمور بك

تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق. وكانت الدعوة لسماع محاضرة لنوبة لبحّاثة معروف، سمعت به، ولكني لم أره بعد.

فذهبتُ، وقد تخيلتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته ... رجلاً أشرف على الخمسين، بشارب مهدّل، وعينين مجهودتين، وصوت متآكل. فما كنت أستقر في مكاني من القاعة وأرفع بصرى إلى المحاضر، وقد اعتلى منصة الخطابة، وبدأ يلقى محاضرته، حتى طالعتني صورة أدهشتني جد الدهشة. رأيتني أمام فتى كله شباب وحيوية، بعينين تلمعان ذكاء؛ له وجه صبيح، بشارب طرير مشذّب على الطريقة الفرنسية، وقوام إغريقيّ يذكّرنا بتماثيل «براكسيتيل»!

فتشككت في الأمر؛ وحسبت أنه قد جد تغير في المحاضرة والمحاضر، وانحنيت على زميل بجوارى أتبين منه حقيقة الحال. فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور بشر فارس نفسه!

ورحت أستمع، فإذا بالمحاضر يلقى بحثه بصوت جميل النبرات، في لهجة فصيحة، تتوضح فيها دقة في الأداء، وحسن اختيار لمواقف الجمل، وحرص على سلامة مخارج الحروف. كل ذلك في اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها في اللحن الفني البارع!

واتسعت مسالك البحث وتشعبت، بيد أن المحاضر كان قابضاً على زمام موضوعه قبضة جبار، يديره في حنكة، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العباب الصاخب ... حتى انتهى به أخيراً إلى شاطئ السلام!

* * *

منذ ذلك اليوم عرفت الدكتور بشر، وما أسرع أن توثقت صلاتي به!.. فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الودود المرح. فالابتسامة اللطيفة التي طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة في سماء مجلسه. وقد يمضي في حديثه الطريف، فلا يكاد يروى لك أخباره عن باريس، ما شاهده في دور العلم بها، وما لقيه في مغاني عبثها ولهوها، حتى ينتقل بك إلى قهوة «الفيشاوى»، ومطعم «الحلوجى»، فيحدثك عن الشاى الأخضر، وصحاف «الطعمية» الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات ... ومن ثمّ يختفي أمامك العالم المجهد، ليحل مكانه «ابن البلد» الوجيه العريق في المصرية، فلا يعوزه إلا (اللاثة) يديرها على رأسه، فينطلق في شوارع «سيدنا الحسين» يلوح في يمينه بعصا الفتُوّة!!

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور بشر تريح الأعصاب، وتملأ القلب من إيناس، وتحوّل نظر المرء إلى الناحية الرفّافة الجميلة في الحياة ...

* * *

صاحَبْنا الدكتور بشر وقتاً، ثم طلبناه حيناً فلم نجده، فكأنه «فصّ ملح وداب» كما يقولون .. ثم عاد إلى الظهور، ولكن في فترات متقطعة نادرة. كنا نراه اتفاقاً في الطريق مهرولاً لا يقر له قرار، وهو مخالط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلائين. فإذا ما استوقفناه، فسألناه عن سبب غيبته، أشار إلى مرافقيه، وقال وهو يتأفف في لهجة المكدود: ألا ترون أني مشغول؟! ويتابع سيره في عجلة واهتمام، وقد اشتبك مع صُنّاعه في مناقشة حادّة ... فلا نشك لحظة في أنه ودّع العلم والأدب والتحق بزمرة المقاولين!

وبينا كنا في مجلس نذكر صديقنا بشراً بالخير، ونأسف

لتوديعه الأدب ؛ إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد في « جاردن ستى » . فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا في متحف فنيّ ، كل ما فيه يشف عن ذوق سليم غاية في السموّ

وجعل صاحب الدار يمر بنا في مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز ، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة عليها بإمضاء فنان ، وهنالك تحفة من الفن الصينيّ الثمين يرجع تاريخ صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعداً لطيفاً على شكل رحل من رحال الجمال . . . وفي ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرفّ الساذج البديع ، يحتضن « تاييس » و « مدام بوفارى » و « أفروديت » وهن في أثوابهن الغالية الفاتنة !

فقطنا بعد لأى إلى سرّ غيبة صديقنا ، وطفقنا نطوف معه ذلك « المزار » المبتكر — حيث يعبق في جوه عطر الفن ، وتشمله روح الجمال !

طابَع الفن والجمال يسم حياة الدكتور بشر بأكملها ، يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه . فإذا ما قرأت له مقالاً رأيته ألبس الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظاً ينتقيها في حكمة ، وينسقها في صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العقد على صدر الحسناء !

فإذا لقيت شخصه ، ألفيت أمامك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحُلَّة ، ليخرج منها صورة فنية طريفة . . .

* * *

ولصديق بشر شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر في العام الماضى مسرحيّته الرمزية : «مفرق الطريق» ، فتلألأت نجماً جديداً في سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ أيام كتابه : « مباحث عربية » ، فإذا هو سفر قد لا نغالى إذا قلنا إنه في طليعة الآثار العلميّة التي تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة في التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علميّ تخطّه علماء الاستشراق ؟

ونحن اليوم نتتبع خطوات بشر فارس وهو يروح ويغدو ، يبحث الصخر آناً في مفاوز العلم ، وينظم الزهر آناً في خمائل الأدب ، ونتساءل في حَيْرة : إلى أى مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل في الإمكان أن يجمع المرء بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر في دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستعبده ؟!

* * *

وللدكتور بشر نواح خفية ، لا يعرفها إلا أصدقاؤه الخلصاء . وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ! فقد يحاسبنى على إفشائها حساباً عسيراً !

إن صديق بشراً — ولنخفض أصواتنا قليلاً — رجل ذوّاقة في المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة في كل ما تزدان به الموائد . . . وإنها لمتعة حقاً حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ؛ يروى لك — وعيناه تلمعان لمعان المرق الشهي — كيف يشترى بنفسه الزبد الطازج ، وينتقى عند الجزار أطايب اللحم ؛ وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذى يحب ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولما يتمّ نضجه على النار ، مقتفياً أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا بشر جولات موفقة في مطاعم المدينة ، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعنَى بمكانه من المائدة ؛ بل يطلب أن يدلوه فوراً على المطبخ . . . وثَمّ يكشف عن القدور يتفحصها تفحُّص عارف ، ثم يشير أخيراً إلى واحدة منها ، فيحضرونها له بأكلها . . . ويشمّر الدكتور عن ساعد الجوع غير معنيّ وتئدّ بأناقته ، وينكبّ على القِدْر فيأتي — في لحظة خاطفة — على ما تعب الطاهى في صنعه ساعات طويلة !

وإنى أنصح — نصيحة مجرب ! — لمن أصيب في معدته ، ورغب في دواء ناجع لإصلاحها أن يأتى بالدكتور بشر عن يمينه وبزكى طليمات عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتناضلان في معركة القدور كرًّا وفرًّا — فإنه لا يلبث أن يشعر بمعدته تتصايح في ثورة جائعة ، وإذا به ينطلق هو أيضاً في صحاف الطعام يفتك بما فيها فتك مغوار !

محمود تيمور